﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾ [هود: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإيمانُ بالمصيرِ إلى الله يُهوِّنُ الصَّعب

لمّا ذكر الله ثوابَ الطائعين الذي يُبشَّرون به، وذكر عذابَ العاصين الذي يُنْذَرونَ به؛ فقد حدَّد هنا محلَّ حصول ذلك، فعيَّن ذلك بأنَّه يوم الرُّجُوعِ إلَيْهِ سبحانه وَمَكَانُهُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾: المَرجِع من (رجع) وهو أصلٌ يدلُّ على العَوْدِ إلى ما كان منه البَدء، سواءٌ كانت العودة بالقول أم بالفعل أم للمكان أم للحال، معنويَّةً أم حسِّيَّة، و(المرجِع) مصدرٌ مِيمِيٌّ على غير القياس بمعنى الرُّجوع، ويصحُّ إجراؤه - في غير هذا الموضع - اسمَ مكانٍ أو اسم زمانٍ (مَفعِل) على غير القياس، بمعنى وقتِ الرُّجوع ومكانه، لكنَّه - هنا - في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ مصدرٌ ميميٌّ[1]، أي: إلى الله رجوعكم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التحذيرُ من الإعراضِ عن دينِ اللهِ؛ إذ الجهلُ بصفاتِ اللهِ سببُ الفسوقِ والعِصيان

إلى الله القديرِ رجوعُكم بعد موتِكم جميعًا، فاصبروا على طاعتِه، وانتظِروا ثوابَه، واجتنِبوا معصيتَه، واحذروا عِقابَه، وهو سبحانه بقدرتِه على كلِّ شيءٍ قادِرٌ على بعْثِكم وإعادتِكم وحسابِكم. وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى إحياءِ الله الموتى؛ فإنَّه تعالى قديرٌ

(1) أجراه البِقاعيّ في هذا الموضع على معنى المصدر الميميّ مع إرادةِ معنى اسم الزّمان والمكان، فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي: إلى اللهِ رُجوعُكم ووَقْتُهُ ومَكانُهُ لِأجْلِ الحِسابِ. يُنظر: البقاعي، نظم الدرر: 9/234.

وقد ردَّ ذلك ابنُ منظورٍ، فقال: "ولا يَجوزُ أَن يَكُونَ هاهُنا ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ اسمَ المَكَانِ، لأَنَّه قَدْ تعدّى بـ(إلى)، وانْتَصَبَتْ عَنْهُ الحالُ، واسْمُ المكانِ لَا يتعدَّى بحرفٍ، ولا تَنْتَصِبُ عنه الحالُ، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (رجع).

(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

على كلِّ شيء، وهي كالدَّليل على حصولِ ذلك؛ إذ من جملةِ الأشياء إحياءُ الموتى، وقد أخبر به وهو أصدقُ القائلين، فيجبُ وقوعُه عقلًا ونقلًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة فصل الآية عن الآية السّابقة:

جملة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ في معنى التعليل لجملة: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٖ﴾، ولذلك فُصِلَتْ، كأنَّه قيل: أخاف عليكم العذاب ذلك اليوم؛ لأنَّكم صائرون إلى الله فيه، فتخريج الجملة على الاستئناف البيانيِّ، كأنَّه حين قال: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٖ﴾؛ قيل: وأيُّ يومٍ هذا؟ فأجيب: هو يوم مرجعكم إلى الله، وجملة الاستئناف البياني تُفصَل، ولا توصَل بالواو، أو الجملة مُستأنفة تأكيدًا لمضمون ما قبلها من الوعيد، فكأنَّه لمّا توعَّدهم بقوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٖ﴾؛ أيَّدَ هذا الوعيد بالكشْفِ عن طريقه، فعذاب اليوم الكبير آتٍ إليهم من طريق مرجعهم إلى الله، كأنَّه قال: إلى عذابِ الله رجوعكم، ووجْه توكيدِها للوعيدِ قبلها أنَّها على تقديرِ: كأنَّه قال: فإنّي أخاف عليكم يومًا تُرجعون فيه إلى الله[2].

جميعُ مَن أطاع ومَـــن أعـــرَض صائرون إلى الله مُنقلِبون

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَى ٱللَّـهِ﴾:

تقديم الجار والمجرور على العامل في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾؛ لإفادة الاختصاص والحصر، فمرجعهم ليس إلّا إلى الله، ولا يختصُّ به أحد سواه، ولا ينقضُ إفادة الحصر أنَّهم لا يعترفون بالبعثِ؛ إذْ قصْدُهُم لا يؤثِّر في حقيقة الأمر، فالحصر واقعٌ طوعًا منهم أو كَرهًا، بل إفادة الحصر هي لدفع اعتقادِهم وإبطالِهِ بأنَّه لا مَرجِع لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة[3].

لمّا كان المَرجِع إلَى اللهِ وحده كانتِ الطّاعةُ له وحده

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/234، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/317.

سرُّ مجيء المسند إليه ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مصدرًا ميميًّا:

يرجِع النّاس إلى اللهِ بذواتِهم حامِلينَ ما اجترحوا، وما اقترفوا

صيغة (مَرجِع) على وزن (مَفْعِل)، وهي صيغةُ المصدر الميميِّ على غير القياس، فتدلُّ على الحدثِ المجرَّد مع دلالتها على الذاتِ، فإنَّ المَرجِع يحمِل معه الدَّلالة على الذّاتِ الرّاجِعَة، والدَّلالة على تمام الحدثِ وغايتِه، فالمرجِعُ يدلُّ على تمام الرجوع ونهايتِه، وهذه نكتة إيثار التعبير بالمصدر الميمي دون غيرهِ من المصادر كالرجوعِ والرَّجعة والإرجاع التي تدلُّ على الحدث مجرَّدًا من غير اقتران معنًى إضافيٍّ به[1].

فائدة الخبر ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

المصيرُ إلى الله مُقتَضى عدلِ اللهِ في خلْقِه

أفاد الإخبار بمرجعهم إلى الله دلالاتٍ عِدَّةً:

الأولى: تقرير محلِّ الوعيد، فهم سَيُعاقَبون في اليوم الذي يُرجَعون إلى الله.

الثانية: تقريرُ البعثِ الذي لا يؤمِنُ به الكافرون، وفي تقريره إغاظةٌ لهم وتبكيت؛ لأنَّه يُجابِهُهُم بما يَستريحون بإنكاره، وينزعجون باستحضاره.

الثالثة: التعريضُ بهم؛ إذْ في التعبير بالمرجِع كنايةٌ عن لازمِه من إرادةِ الرَّدع وَتَحْقِيرِ الانفلاتِ والطغيان، فكأنَّه يقول لهم: لعصيانكم نهاية، ولِفجوركم رادِعٌ وصادٌّ.

الرّابعة: إرادة تعميمِ المرجِع بإضافتِه إليهم، فكلُّ مَرجِعٍ لهم في شيءٍ إنَّما هو بالله ومنه وإليه، فالمرجِع كنايةٌ عن العواقِب الحاصلة لهم في الدنيا وفي الآخرة، فلا يقتصِر على المصير الأخرويِّ فقط[2].

وجهُ عدمِ ورود لفظ (جميعًا) في الآية:

لم يَرِد لفظ (جميعًا) في قولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ وَهُوَ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو، ص: 31.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

الخطابُ لجميع الناس واللهُ هو ربُّ الجميع

عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لأنَّها تخاطبُ جميعَ الناس، سواء سواء أكانوا مسلمين أم غير ذَلِكَ، صالحين أم طَالِحِينَ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى هو ربُّ الجميع، وهو الذي خلقهم، ورزقهم، وهداهم، وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم يومَ القيامة، وتتحدَّثُ الآية الكريمة عن مَصِيرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وهو الرجوعُ إلى الله تعالى للحساب والجزاء، والله تعالى هو القاضي العدل، وهو الذي سيحاسب كلَّ إنسان على أعماله، مهما كانت هذه الأعمال؛ فالآيةُ الكريمة لا تحتاجُ إلى إضافة لفظ (جميعًا)؛ لأنَّ المخاطَبين بها هم جميع الناس، لَكِنْ عندما تناولتِ الآياتُ التي ورد فيها الرجوع إلى الله مع لفظ (جميعًا)، فإنَّها تحدَّثت عن طوائفَ منهم، كما في الحديث عن جَعْلِهِ سبحانه لكلِّ أمَّة شريعةً؛ ليختبر الله الجميع، فيظهر المطيعُ من العاصي، فطلبَ إليهم المسارعةَ إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، فقال: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة: 48]. وعندما ذَكَر المؤمنين إذا ٱلۡزَمُوا أنفُسَهم بالعمل بطاعة الله واجتناب معصيته، وداوموا على ذلك، وإن لم يَسْتجبِ الناسُ لهم، فإذا فعلوا ذلك؛ فلا يضرُّهم ضلالُ مَن ضلَّ؛ إذا لزموا طريق الاستقامة، وأمروا بالمعروف، ونهَوا عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: 105].

معنى الواو في: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

قـــدرةُ الـلـهِ مُتَجَلّيَةٌ في كلِّ شيءٍ لا يُنكرُها إلّا المجرمون

جملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ تقريرًا وتأكيدًا لتَحقُّقِ المَرجِع وعدمِ الرَّيْبِ فيه بحالٍ من الأحوال، كما أنَّ التذييل بجملةِ القُدرة مَسوقٌ مَساقَ التعليل العام

والبرهان المُطلَق على جميع ما سبقه من مضامين الوعد والوعيد من التمتيع الحَسَن، والمُجازاة بالفضل لذوي الفضل، والتخويف بالعذاب الكبير لأهل الإعراض، فالتذييل لتقرير أنَّ الله قادرٌ على تلك المذكوراتِ جميعًا لا يُعجزه شيء منها؛ ليَقطع أعذار المُرتابين، ويعصِم الصادقين من الرِّيبَةِ وعدم اليقين، ويصِحُّ إجراء الجملةِ على الاستئناف تقريرًا لِعموم القُدرة[1]، ومن الممكن أن تكون الواو حاليَّةً على معنى: والحال أنَّ الله على كلِّ شيء قدير.

بلاغة العموم الذي أريد به الخصوص:

قدرةُ الله تستغرقُ الكليّات والجزئيات

التذييل بجملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من باب العموم الذي أريد به الخصوصُ، على سبيل المجاز المرسلِ لِعلاقةِ العموم، فمعنى الكُلِّيَّة والشمول في التركيب محمولٌ على إرادة الأشياء المخصوصةِ بالذِّكر في النَّظم، وهي قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، وقوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾، ونُكتةُ مجيء التركيب على العام مع إرادة الخاص؛ لأنَّ القُدرةَ على كلِّ شيءٍ يستلزِمُ القُدرةَ على تلك الأشياء المخصوصة، فدلَّ بمعنى العَامِّ على الخاصِّ[2].

نكتة تذييل الآية بصفة القدرة:

ما من عظيمٍ أو كبيرٍ إلّا تحتَ قدرة الله مغلوب

ذُيِّلت الآيةُ بصفةِ القدْرةِ في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لتقريرِ كِبَرِ اليوم المدلولِ عليه بقوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، فإنَّ وصفَ الكِبَرِ بما تضمَّنه من معاني العِظَمِ والثِّقَلِ فيما يُلابسه من أهوالٍ وشدائدَ وحوادثَ يُناسِبُه، ويُلائِمُه وصْفُ القُدرةِ التي تُغالِبُ، وتُحَادُّ هذه الأوصاف[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/195، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320، وصافي، الجدول: 11/217.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/150، وابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 10/5.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/128.

نكتة تنكير المسند ﴿قَدِيرٌ﴾:

العِلم بصفاتِ اللـه سببُ الخشيةِ والإيمان

تنكير لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ لإفادة العموم في اتِّساع القُدرةِ وإحاطتها بجميع المتعلَّقات، ووقوع كلِّ الجزئياتِ تحتها من غير فواتِ شيءٍ منها، وهو مؤذِنٌ بتعظيم الصِّفة وكمالها وإجلالِ الموصوفِ وكمالِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المرجِع والمصير:

المرجِع متضمِّنٌ معنى الاسترداد، والمصير مُتضمِّنٌ معنى التَّحوُّل

المرجِع: مِنَ الرُّجوع، وهو العَودُ من لاحقٍ إلى سابق، فهو انتقالُ الشيء إلى الحالِ التي كان عليها، فهو عوْدٌ إلى نفْسِ الحالِ الأولى، سواء كان ذلك في القول أم الفعل أمْ في المكان ونحو ذلك، ففيه معنى استردادِ السّابق، وأمّا المَصير، فهو من الصَّيرورة بمعنى الانتقال والتحوُّل من حالٍ إلى أخرى، سواء كانت هذه الأخرى موجودةً من قبل أم غير موجودة، ولذا كان المصيرُ في معنى العاقِبة والجزاء؛ إذِ العاقِبةُ حالٌ جديدة لم يكن عليها الإنسان من قبل، ولكنَّه تحوُّلٌ من حالِه الحاضرةِ إليها، بخلاف المرجِع، فهو عوْدٌ إلى حالٍ كان منها البدء[1].

(1) ابن فارس، والرّاغب، المفردات: (رجع، صير)، وابن منظور، لسان العرب: (رجع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع، صير).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»